ردمد: ١٦٠٧-٢٠٩X

دولة الإمارات العربية المتحدة
دبي

مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية
فكرية
محكّمة

العدد العشرون
شوال ١٤٢١هـ - يناير ٢٠٠١م

المحتويـــــات

● **الافتتاحية**

مدير التحرير ١١-١٦

● **الخَيْريَّةُ في النُّصوصِ القُرآنيَّةِ**

نبيل حامد خضر ١٩-٥٢

● **مُوازَنَةٌ بينَ كِتابِ «الناسخِ والمَنسُوخِ في القُرآنِ الكَريمِ» لأبي بكر بن العربيِّ وكتابِ «الإيضاح لناسخِ القرآنِ ومنسوخِهِ» لمكيِّ بن أبي طالبٍ القيسيِّ**

أ. د. أحمد حسن فرحات ٥٣-٨٢

● **نَظَراتٌ فاحِصَةٌ في «رِسالَةٍ في تَفسيرِ قَولِهِ تَعالَى: ﴿إنَّ إبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً﴾» المنسوبة إلى الإمامِ ابنِ طُولُون**

د. عبد الحكيم الأنيس ٨٣-١٠٥

● **مَسائِلُ أبي جَعْفَرٍ مُحَمَّد بن عُثْمانَ بن أبي شَيْبَةَ «دراسة وتحقيق»**

أ.د. عامر حسن صبري ١٠٧-١٦٤

● **الصَّحابَةُ وعَدالَتُهُمْ**

د. عبد العزيز أحمد الجاسم ١٦٥-٢٠٥

● **العالَمُ الإسلاميُّ وتَحَدِّياتُ العَولَمةِ**

أ. د. سعد الدين السيد صالح ٢٠٧-٢٣٧

● **تَطَوُّرُ دِراسَةِ السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ بين وليم ميور وديفيد ص. ماركوليوث**

د. ناصر عبد الرزاق الملا جاسم ٢٣٩-٢٧٢

● **الأثَرُ الاقْتِصاديُّ للصَّيرفَةِ والصَّيارِفَةِ في الدَّولَةِ العَرَبِيَّةِ الإسلاميَّةِ حتَّى القرنِ الرابعِ الهجريِّ / العاشر الميلاديِّ**

د. خالد إسماعيل نايف الحمداني ٢٧٣-٣٠٢

● **تَفسيرُ مَقصُودِ المُتَكَلِّمِ في التَّحليلِ النَّحْوِيِّ**

د. أحمد شيخ عبد السلام ٣٠٣-٣٣٢

● **التَّحليلُ النَّحْوِيُّ «تَعريفُهُ وطبيعتُهُ»**

د. محمود الجاسم ٣٣٣-٣٤٦

● **في التَّحليلِ الاجتماعيِّ للظَّاهِرَةِ النَّحْوِيَّةِ**

المثالُ النَّحْوِيُّ في كتابِ سيبَويه بينَ الدَّلالةِ الاجتماعيَّةِ والقاعِدَةِ النَّحْوِيَّة

د. حسن خميس الملخ ٣٤٧-٣٧٠

● **النَّصُّ ومُحيطُه**

أ.د. حسن الأمراني ٣٧١-٣٨٢

● **كشاف بعنوانات البحوث وأسماء مؤلفيها من العدد الأول إلى العدد العشرين**

د. عطية أحمد محمد الوهيبي ٣٨٣-٣٩٤

فِي التَّحْليلِ الاجتماعيِّ للظَّاهِرَةِ النَّحْوِيَّةِ
المثالُ النَّحْوِيُّ فِي كتابِ سِيْبَويه بينَ الدَّلالةِ الاجتماعيَّةِ والقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ

د. حسن خميس الملخ(*)

مُلَخَّصُ البحث:

دراسةُ المثال النَّحْويّ في (الكتاب) كتاب سيبويه على وَفْق مُعطيات علم اللُّغة الاجتماعيّ سعيٌ وراءَ دراسة العَلاقة بينَ الدَّلالة الاجتماعيَّة للمثال النَّحْويّ، والقاعدة النَّحْويَّة، يقومُ على فكرة عامَّة مُؤَدَّاها أنَّ اختيارَ سيبويه في كتابه لأمثلَته النَّحويَة اختيارٌ قَصْديٌّ في بُعْدِه النَّحْويّ والاجتماعيّ، وقد استفادَ سيبويه منَ العلاقة المُتبادَلة بينَ البُعْدَين في تحليل أمثلَته النَّحْويَّة على وَفْق مُلابسات السِّياق الاجتماعيّ، فأصْبَحَ المثالُ وثيقةً اجتماعيَّةً تَدُلُّ على مظاهر الحياة الاجتماعيَّة في عصره - القرن الهجريّ الثاني / الثَّامن الميلاديّ - ووسيلةً إلى تحليل بعض الظَّواهر النَّحْويَّة كالحَذْف، ودلالة الحركة الإعرابيَّة على الوظيفَة النَّحْويَّة، والمَقيس عليه، والمحفوظ تحليلاً اجتماعياً يتساوقُ إلى حدٍّ ما مع مُعطيات علم اللغة الاجتماعيّ، وَأَكَّدَ البحثُ تكاملَ مناهج الدِّراسة النَّحْويَّة في كتاب سيبويه، داعياً إلى مُحاكاة تجربَته في الإفادة منَ البُعد غير النحويّ للمثال النَّحْويّ، ليكونَ مُمَثِّلاً لعَصْره، ودَليلاً على القاعدَة النَّحْويَّة.

(*) عضو هيئة تدريس، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم - جامعة آل البيت - الأردن

البحث:

يستأنفُ هذا البحثُ النَّظرَ في (الكتاب) كتاب سيبويهِ المتوفَّى في حدُودِ سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م[١] في ضوءِ علْمِ اللغةِ الاجتماعيِّ[٢] Socilinguistic ليستَجلِيَ أبعاداً نَحْوِيَّة كان السِّياقُ الاجتماعيُّ عُنصُراً أساساً في تقعيدِها، كتقعيدِ الظَّاهرَةِ النَّحْوِيَّةِ في كتاب سيبويه بينَ مَنهجين: ثابتٍ ومتحوِّل، يتوازيانِ في خَطِّي المِعيارِ المجرَّد، والوَصْفِ الحيِّ، وكاختيارِ سيبويه أمثلةً بعَينِها للاستدلالِ على مقصِدِه النَّحويِّ، فاختيارُ «جاءَ عبدُ اللّه» في الاستدلالِ على تَرَكُّبِ الجُملةِ الفعليَّة من (فعل وفاعل) اختيارٌ مقصودٌ، لأنَّ البدائلَ أمامَه كثيرةٌ جداً، لكنَّ هناك خُصوصيَّةً اجتماعيَّةً للفعل (جاء) والفاعل (عبد الله) وكجَبْرِ السِّياقِ الاجتماعيِّ لانْحرافِ الكلام عن معياره النَّحويِّ في التخفُّفِ مِنْ بَعْضِ العناصرِ النَّحْوِيَّةِ، وإهمالِ دلالةِ الحركةِ الإعرابيَّةِ على المعنى.

ثُمَّ يتطلَّبُ البحثُ بعد ذلك الفائدَةَ التي يُمكن توظيفُها في الدَّرسِ الحديثِ للظَّاهرَةِ النَّحْوِيَّةِ عِندَ إدخالِ المُجتَمع فِي كلِّ أبعادِه الثَّقافيَّةِ، والاقتصاديَّةِ، والاجتماعيَّةِ في الدِّراسَةِ النَّحْوِيَّةِ.

السِّياقُ الاجتماعيُّ:

يتطلَّبُ الموقفُ الكلاميُّ مُرْسِلاً ومُستَقْبِلاً - على أيَّةِ صورةٍ من صورِ الإرسالِ والاستقبالِ - يتبادلانِ خِطاباً لُغَوِيًّا مفهوماً في وسَطٍ يُساعدُهما على التَّواصُلِ، فيُضْحِي خطابُهم دالاًّ ومدلولاً عليه، كما في الرَّسْمِ الآتي:

---

(١) هناك خلافٌ كبير في تحديد سنة وفاة سيبويه.

انظر: نزهة الألباء، ص ٥٨ ، وسيبويه إمام النحاة، ص ١١٧-١٢٢.

(٢) انظر في مفهومه وأبعاده في الدرس اللغويّ الحديث، كمال محمد بشر، علم اللغة الاجتماعيّ، ص ٤١-٦٧.

وقد وصف كمال بشر علمَ اللغة بأنَّه «علمٌ ذو أهمية وطرافة، فهو يُلقي ضوءاً على السُّلوك الاجتماعيّ والخواصّ الاجتماعيَّة من عاداتٍ وتقاليدَ في المجتمعِ المعيَّن، وقد تقودُ مثلُ هذه الدِّراسةِ إلى الكشفِ عن طبقاتِ المجتمعِ كشفاً موضوعيًّا صحيحاً». انظر كتابه: التفكير اللغويّ بين القديم والحديث ، ص ٥٨.

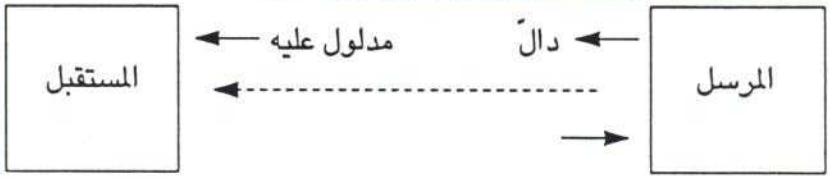

والدّالُّ والمدلول عليه يحملانِ دلالاتٍ نَحْوِيَّةً وصَرْفِيَّةً وصَوتِيَّةً ومُعْجَمِيَّةً.

وهذا الرسمُ ينظرُ إلى السّياقِ على أنّه عنصرٌ مُحايدٌ في التّأثيرِ في الموقفِ الكلاميِّ[١]، وهي نظرةٌ شكليَّةٌ تُهمل أنّ المرسِلَ يعيشُ في سياق، والمستقبلَ المُتلقّي يعيشُ في سياق، وهذا السّياق يُمكنُ أنْ يكونَ عنصراً مؤثّراً في نَقْلِ الخِطابِ الكلاميِّ بينهما على نَحْوٍ ما، لأنّ السّياق هو المُجتمعُ الحيُّ اجتماعيًّا، واقتصاديًّا، ونفسيًّا، وثقافيًّا، وسياسيًّا، ويكادُ السّياقُ الاجتماعيُّ يعُمُّ هذه الأبعادَ كلَّها، لأنّ (الاستقبال) (التّلقي) في صميمه عمليَّةٌ اجتماعيَّةٌ[٢]، واللغةُ لا وجودَ لها خارجَ الإطارِ الاجتماعيِّ[٣]، لأنّ «التّحليل الكاملَ لما تعنيه الكلمةُ، أو صيغة الجملةِ لابْنِ اللغة يجبُ أنْ يشتملَ على قَدْرٍ كبيرٍ، وغيرِ محدود منَ المعرفةِ فوقَ اللغويَّة، ومن معرفة الكثيرِ من المُدركاتِ، والمشاعرِ، والأفكارِ، والعواطفِ، والآمالِ، والمخاوفِ الخاصَّـــة، و ... إلـــخ»[٤]، «فالسّـياقُ مُثيرٌ للقراراتِ الثنائيَّةِ بينَ المرسِلِ والمستقبِلِ، ولايُمكن إدركُ تواصلِهما إلا به»[٥] أحياناً.

ولعلَّ الرسم الآتي للعلاقة بين الدالِّ والمدلول عليه أكثرُ دقَّةً[٦] من سابقِه.

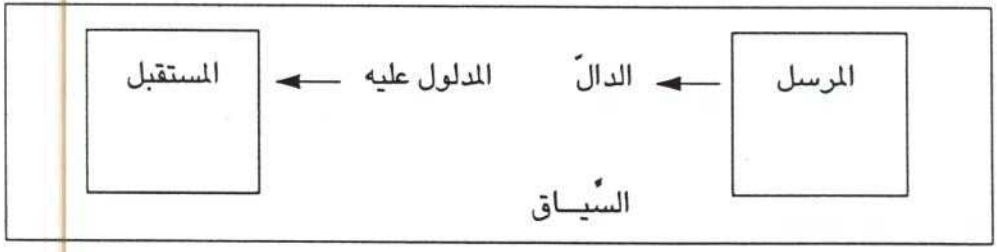

(١) وهو مايتفقُ مع النّظريّة الإشاريّة في تفسير المعنى، وقد أُخِذَ عليها تركيزُها على المضمون، واعتمادها على المرجع الخارجي الشكليّ للمعنى فقط. انظر سيكولوجية اللغة والمرض العقليّ، ص ١٣١-١٣٣.

(٢) علم لغة النصّ: المفاهيم والاتّجاهات، ص ٧٠.

(٣) علم اللغة العامّ، ص ٩٥.

(٤) موجز تاريخ علم اللغة، ص ٣٤٢.

(٥) انظر: تحليل ميلكا إفيتش لعناصر عملية التّواصُلِ بين المرسِل والمستقبل في كتابه: اتجاهات البحث اللسانيّ، ص ٤٣١.

(٦) وهذا مايوضحه سعيد حسن بحيري، انظر كتابه: علم لغة النصّ، ص ٦٨-٧٠

وقد أدركَ سيبويهِ الحضورَ الفاعلَ للسِّياق في صَوْغِ العربِ لكلامِهم، فقالَ: «ومِنْ كلامِهِمْ أَنْ يجعلوا الشَّيءَ في موضعٍ على غير حالهِ في سائرِ الكلام»[1]، ففي تحليله لمُقتضياتِ حذْفِ الفعلِ والفاعلِ في العربيَّة، قال: «أو رأَيْتَ رجلاً يُسَدِّدُ سهماً قِبَلَ القِرطاسِ، فقلت: القِرْطاسَ واللهِ، أي: يصيبُ القِرْطاسَ، وإذا سمعْتَ وقْعَ السَّهمِ في القِرْطاسِ، قلْتُ: القرطاسَ واللهِ، أي: أصابَ القرطاس»[2] فكلمةُ (القرطاس) صيغةٌ مجرَّدَةٌ لم تكتسبْ أيَّة دلالةٍ إلا عندَ رسمِ السِّياق الذي تحوَّلتْ فيهِ إلى عنصرٍ حاملٍ لمعنى الإصابةِ، وهذا المعنى كانَ مُرتَبطاً بالزَّمَنِ، فقبلَ حدوث فعْلِ الإصابة، كان هناك توقُّعٌ ناسبه الفعلُ (يُصيبُ)، وعند حدوث الفعل، كان هناك تحقُّقٌ في الحَدَثِ ناسبه الفعلُ الماضي (أصاب).

فالجملة العربيَّةُ تتضمَّنُ أحياناً فراغات، لايملؤُها إلا تبيُّنُ السِّياق الذي قيلت فيه، كقول سيبويه: «أو رأيتَ رجلاً يقول: أضْرِبُ شرَّ الناسِ، فقلت: زيدًا.. استغنيتَ عن الفعل بعِلمِهِ أنَّه مُستخبَرٌ»[3]، إذ يوجد قبل كلمة (زيداً) فراغٌ نحويٌّ لم يملأه إلا السِّياقُ.

فسيبويهِ أدركَ أنَّ اللغةَ صيغٌ وأشكالٌ يُبْدِعُهَا المُتَكلِّمُ أو المُنشىءُ، فتَدِبُّ فيها الحياةُ بكلِّ مضامينها وأبعادها، وليستْ عباراتٍ مسكوكةً، تحملُ الطَّاقاتِ التَّعبيريَّةَ حتَّى لو كانتْ في المعجم، ولهذا، فكلُّ استعمالٍ لأيَّة صيغةٍ من صيغ اللغة في الإفرادِ والتَّركيب ابتداعٌ جديدٌ غالباً في بُعْدِه السِّياقيِّ غير اللغويِّ، لأنَّ اللغةَ عَرَضٌ وليست جوهراً، ولهذا قيلَ: «ليس هناك معنى، إنَّما استعمالاتٌ شتَّى، فالمعنى كما يصل إلينا في الخطاب يخضعُ لعلاقاتِ الكلمةِ معَ غيرِها من الكلماتِ ضمْنَ السِّياقِ ذاتِهِ، وتحدِّدُ بنية النظامِ الألسنيِّ هذه العلاقات»[4].

فالنَّحوُ مُحدِّد من مُحدِّداتِ الصَّواب والخطأ[5]، وظيفتُه تحديدُ الوجهِ الجائزِ نحواً بعلامةٍ ملحوظةٍ أو ملفوظةٍ تُشيرُ إلى العلاقاتِ النَّحْويَّةِ في الجملةِ، فنصبُ كلمة (زيداً) في المثالِ السَّابق علامةٌ تُشيرُ إلى ناصبٍ يُفسِّرُ الجملة نحواً ودلالةً.

(١) الكتاب، ج١، ص٥١.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٥٣.
(٤) علم الدلالة، ص ٢٩.
(٥) كما أنَّ السِّياق فيْصلٌ في الحكم بصحَّة التَّراكيب النَّحويَّة وخطئها أحياناً. انظر مُدارسة سيبويه لجملة «أنا عبدُ اللهِ منطلقاً» وتحليل الدكتور نهاد الموسى لمدارسة سيبويه لها في كتابه: نظريَّةُ النَّحْو العربيِّ في ضوء مناهج النَّظر اللغويِّ الحديث، ص١٠١-١٠٢.

وقد نقلَ سيبويه أنَّ منَ العرب من يقول: «قالَ فُلانةُ» فيحذفُ علامة التَّأنيث من الفعل مع أنَّ الفاعل مؤنثٌ حقيقيٌّ غيرُ مفصول عن الفعل، وفسَّرَ ذلك بقوله: «وإنما حذفوا التَّاءَ: لأنَّهم صار عندهم إظهارُ المؤنثِ يكفيهم عن ذِكْرِهم التاء»(١)، فعناصر السِّياق هنا ثلاثةٌ: فعلٌ وصورةٌ مؤنَّثةٌ، وفاعلٌ يمثل الصُّورة المؤنَّثة، أي: هو نفسُهُ. والعناصرُ المطلوبة لتحقيق السَّلامةِ النَّحويَّةِ في هذا التعبيرِ ثلاثة: فعلٌ، وعلامة تأنيث، وفاعلٌ مؤنَّث، والعلامةُ عنصرٌ إشاريٌّ، فبدَلَ أنْ تأتيَ ملفوظةً مع الفعلِ جاءتْ ملحوظةً مع الموقفِ السِّياقيِّ لحدوثِ الفعلِ، فعلامةٌ بعلامةٍ وإشارةٌ بإشارةٍ.

وهذا يؤكِّدُ قول نهاد الموسى حينَ قال: «إنَّ سيبويه أدركَ مايكونُ من اندغامِ اللغة في نظامِها الداخليِّ الخاصِّ بالحياة في مجالِها الخارجيِّ العامِّ، أو أدركَ أنَّ بين اللغةِ وسياقِها الاجتماعيِّ علاقةً عضويَّةً»(٢).

وإذا كان سياقُ الكلام لايدلُّ على عنصرٍ يعوضُ عن العنصر النحويِّ المحذوف، أو يشير إليه، فليس كلاماً حيًّا مُمَاثِلاً لما يجري على ألسنةِ العربِ من الكلامِ الحيِّ الحاملِ لأرائهم وأفكارِهم ومشاعرِهم، لأنَّ السِّياقَ في حقيقته عنصرُ إيضاحٍ لا عنصرُ غموضٍ ولبْسٍ وإلغازٍ، لهذا وصفَ سيبويه تعليقَ الكلام على سياق غَامِضٍ مجهولٍ مُلبِسٍ بأنَّهُ «مُلغِزٌ تاركٌ لكلام النَّاس الذي يسبقُ إلى أفئدتهم»(٣).

فإنْ أضمرمتكلِّمٌ منشئٌ اسْمَ شخص حليم،وابتدأ كلامه بقوله: «كانَ إنسانٌ حليمًا» - وكان ناقصة لاتامَّة - كانَ مُلغزاً، مُلبساً، لأنَّ السِّياق غيرُ موضِّح لمسمَّى الإنسان، وهذا ما عَبَّرَ عنه سيبويه بقوله: «ولا يُبدأ بما يكون فيه اللبسُ، وهو النكرة، ألا ترى أنَّك لو قلتَ: كان إنسانٌ حليماً، أو، كانَ رجلٌ منطلقاً، كنتَ تُلْبِسُ، لأنَّه لا يُستنكَرُ أنْ يكونَ في الدنيا إنسانٌ هكذا»(٤).

فكأنَّ التعريفَ والتنكيرَ في وجهٍ من وجوههما قضيَّةٌ عُرفيَّةٌ اجتماعيَّة، قنَّن النَّحوُ بعض

(١) الكتاب ج٢، ص ٣٨.

(٢) نظرية النحو العربي، ص ٩٩. وقد ذكر كمال بشر أنَّ «كتاب سيبويه نفسَه خيرُ شاهدٍ على إدراك هذه العلاقة». انظر كتابه: «التفكير اللغويّ» ص ٥٥.

(٣) الكتاب، ج١، ص ٣٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٤٨.

علاماتِها، واكتفى بالسِّياق جابراً لما لم يقننه، من ذلك أنَّ قول الناس: «سأتيك غداً» وقعتْ فيه كلمة (غداً) مُحددة تحديداً لالبْسَ فيه، وإنْ كان شكلُها نكرة، فهي في دلالتها السِّياقيَّة مَعرفة تامَّة التعريف، قد تفوق دلالة العلميَّة في قولنا: «حضرَ سعيدٌ» فـ (سعيد) وإنْ كان معرفة بالعلمية يشير إليه السِّياق، إلا أنَّهُ مشتركٌ بينَ المسمَّين به، لولا أنَّ السِّياق حَدَّدَهُ.

وينبغي الاحتراسُ بتقرير حقيقة مُدركة في كتاب سيبويه، وهي أنَّ علمَ اللغةِ الاجتماعيَّ إذ يدرس كتابَ سيبويه اجتماعيًّا، فإنَّه لا ينفي تَمَثُّلَ بعضَ المناهجِ اللغويَّةِ الأخرى فيه كالمعياريَّة مثلاً.

الثَّابتُ والمتحوِّل: نموذجٌ منَ الأثرِ الاجتماعيِّ في المَنهجِ النَّحْويِّ:

منَ القضايا المنهجيَّة التي بدأ الباحثون يتداولونها في العربيَّةِ قضيةُ المنهجِ في كتابِ سيبويهِ بينَ المعياريَّة والوصفيَّة[1] وهي قضيَّةٌ يُمكنُ لعلمِ اللغةِ الاجتماعيِّ أنْ يؤطرَها في سياقٍ عِلْميٍّ مقبولٍ على وَفْقِ نظريَّةِ البدائلِ المعجميَّةِ والصَّرْفيَّة والصَّوتيَّة والنَّحْويَّة التي يُمكن للمتكلِّم أو المنشئ استخدامُها في التَّعبيرِ الدقيقِ عن فكرةٍ ما، فقد بيَّنَ هدسن Hudson أنَّ «البدائل لا تُستخدم غالباً على مستوى التراكيبِ (النحو Syntax)، بينما يُفَضَّلُ استخدامُها على مستوى المفرداتِ والنُّطقِ، وتُستَخدَمُ بوصفها شواهدَ ترمزُ إلى الفوارقِ الاجتماعيَّة»[2].

فعندما يُقنِّن سيبويه معياراً نحويًّا في صورة أصل كتقنين أنَّ الجملةَ العربيَّةَ تتركَّبُ من مُسندٍ ومُسند إليه مُتبادلين مَوقعيًّا لاينسى أنْ يصفَ الوجوهَ المُمكنة لتمثُّل المعيارِ، مُدركاً أنَّ قضايا الحذفِ والتَّقْديمِ والتَّأخيرِ وغيرها قضايا سياقيَّة غالباً، وهذا ما يردُّ هذه القضايا إلى المعيار الثابتِ، كما في قوله: «والاهتمامُ والعناية هنا في التقديم والتأخير سواءٌ، مثلُه في: ضربَ زيدٌ عَمْراً، وَضَرَبَ عَمْراً زيدٌ»[3].

فسيبويه - فيما يبدو - نظرَ إلى الظَّاهرةِ اللغويَّةِ في خَطَّين مُتعامدين: ثابتٍ يمثِّلُ المعيار، ومتحوِّلٍ يمثِّل الوجوهَ التي يتجلَّى فيها المعيارُ، فتحدَّث عن لغاتِ العربِ،

(١) انظر على سبيل المثال: الكتاب بين المعياريَّة والوصفيَّة. والمنهج الوصفيُّ في كتاب سيبويه.

(٢) علم اللغة الاجتماعيّ ص ٨٧.

(٣) الكتاب، ج١، ص ٨٠-٨١.

والأصواتِ المُستحسنةِ والمُستقبحة، والإمالةِ والحذفِ والتَّقْديرِ[١] في إطارٍ من التَّعَدُّدِ في اللجهاتِ، والتوحُّدِ في المعيار النَّحْويِّ[٢]، لأنَّه «يُعَبِّر عن وعي بصير بدورِ اللغةِ الواحدةِ المشتركة في صياغة المجتمع الواحد»[٣] إذ لم يَتَبَيَّنْ فروقاً جوهريَّةً في النِّظام النَّحويِّ بينَ لهجاتِ العربِ المحتجِّ بها، فالقرآنُ الكريمُ، وهو في أعلى درجاتِ البلاغةِ والفصاحةِ، وكلُّ مافيه «مُسَلَّمٌ مُتَّبَعٌ»[٤] يسير على وَفْقِ نظامٍ نحويٍّ موحَّدٍ مع أنَّه يستعملُ أحياناً كلماتٍ وتراكيبَ من لهجاتٍ مختلفةٍ[٥].

وهذا التَّوحُّدُ النَّحْويُّ الذي اختطَّه نحاةُ العربيَّةِ يَتَّفِقُ مع ملاحظةِ هدسن الذَّكيَّةِ في دراسةِ البدائلِ اللغويَّةِ، إذ قال: «يبدو أنَّ هناك جنوحاً أكبرَ نحو التَّوحيدِ uniformity أو عدم التَّبايُنِ في جانب التَّراكيب، لانجده في الجوانبِ اللغويَّةِ الأخرى»[٦].

وإذا شاعتْ كلمة ما، وكانت لصيقةً بحياةِ الإنسان كانت عُرضةً للتبدُّلِ الصَّوتيِّ، ولعلَّ هذا مايفسِّر تعدُّد لغاتِ العربِ في نداء كلمة (أم) أو (أب)[٧].

وقد ردَّ سيبويه هذا التعدُّدَ إلى المعيارِ المُوَحَّدِ في النِّداءِ عندَ البَصْرِيِّينَ، وهو النَّصْب حقيقةً أو محلاً، فعدَّ الألفَ في قولِ العرب «يا أماه» مُبدَلة من الياء، لأنَّها أَخَفُّ، فهي في حُكم المضافِ إليه[٨]، وهذا تفسيرٌ معياريٌّ، قد لايكون دقيقاً إذا تتبعنا التَّطَوُّرَ التَّاريخيَّ السَّاميَّ لكلمة (أم) لكنَّه حلٌّ مقبولٌ في إطارِ سعي سيبويه والنُّحَاة بعدَه إلى إقامةِ معيارٍ يَرُدُّ التبدُّلاتِ المختلفةَ في الظَّاهرةِ الواحدةِ إليه.

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ج٤، ٤٣٢، ١١٧-١٣٥، ج١، ص ٢٥، ٢٦٦، ج٢، ص ٢٧٨-٢٨٣، ج٣، ص ٥١٩، ج٤، ص ٤٠٥، ج١، ص ٥٦.

(٢) وقد أوضحَ رمزي منير بعلبكي هذا التوحُّد في بحثه: الوحدة الدلخليَّة في كتاب سيبويه، ضمن كتاب: بحوث عربيَّة مُهداة إلى الدكتور محمود السمرة، ص ١١٣-١٢٧.

(٣) الوجهة الاجتماعيَّة في منهج سيبويه في كتابه، مجلة حضارة الإسلام، دمشق، ١٩٧٤م، نسخة مصورة عن البحث، ص ٢١. وانظر بسطه الغني لموضوع اللغة والمجتمع في البحث نفسه، ص ٢١-٢٥.

(٤) شرح المقدمة المحسبة، ج٢، ص ٤٣٤.

(٥) مثل لغة (أكلوني البراغيث) وإعمال (ما) عمل (ليس) وإهمالها بين الحجازيِّين والتميميين. انظر الكتاب، ج٢، ص ٤٠-٤١، ج١، ص ٥٧-٦٩.

(٦) انظر: الكتاب، ج٢، ص ٢١٠-٢١٤.

(٧) انظر: الكتاب، ج٢، ص ٢١٠-٢١٤.

(٨) انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص ٢١٠.

وَوَصَفَ سيبويه ظواهرَ صرفيَّةً صوتيَّةً على أنَّها تمثِّلُ الاستعمالَ الحقيقيَّ للغةِ في عصره، لا المعيارَ، فقال عن بعض العرب إنَّهم «قد يبلغون بالمُعتل الأصلَ، فيقولون: (رَادِدٌ) في (رادَ) و (ضَنِنُوا) في (ضنُّوا)[1]، و ربَّما مدُّوا مثل (مساجد) و (منابر)، فيقولون: (مساجيد) و (منابير)[2] ففكُّ الإدغام الواجب، ومدُّ الصَّائت القصير (الكسرة) استعمالٌ لغويٌّ أقرَّه سيبويهِ استعمالاً لا معياراً يُقاسُ عليه في حالِ السَّعة والاختيارِ، لأنَّه أدركَ أنَّه «ليس من الضروريِّ أن نفترضَ أنَّ كلَّ أفرادِ المجتمعِ لديهم الصِّيَغُ الصَّوتيَّةُ نفسُها لكلمةٍ ما»[3].

لكنْ لماذا يصفُ سيبويهِ ظواهرَ صوتيَّةً وصرفيَّةً من غيرِ أن يُجَرِّدَ منها معياراً يجوزُ اتخاذُه أداةً لتوليدِ الصِّيغِ والتراكيبِ على وَفْقِه؟

لعلَّ الذي سبقَ إلى ذهنِ سيبويه والنُّحاةِ قبلَهُ وبَعْدَهُ أنَّ الظَّاهِرَةَ الواحدةَ من ظواهرِ النِّظَامِ اللغويِّ إذا كانت معاييرُها على عددِ تبدُّلاتها المستعملة عندَ جميعِ النَّاطقينَ باللغة، فإنَّ المعاييرَ ستفقدُ قيمتَها الدِّفاعيَّةَ في جعلِ اللغةِ مُوَحَّدَةً ثابتةً، فقوةُ معايير أيَّةِ لغةٍ تتناسبُ تناسُباً عكسيًّا مع عددها في الظَّاهرةِ الواحدة، فوجودُ معيارٍ واحدٍ لبناءِ اسمِ الفاعلِ من الفعل الثلاثيِّ المضعَّف أقوى من وجودِ معيارين يحملانِ في ثنائيتهما بذورَ التفتُّتِ اللغويِّ، ولهذا كان جُلُّ النُّحَاة بعدَ سيبويهِ يَنْصَرِفُونَ عن صنيعهِ في وَصْفِ الاستعمالِ اللغويِّ المقبولِ في عصرهم إلى تقنينِ الظَّاهرةِ بمعاييرَ مجرَّدةٍ، حتى إنَّهم جعلوا من أمثلة سيبويه مادَّةً مُجمَّدةً معزولةً أحياناً عمَّا طرأ عليها في عصرهم من تَطَوُّرٍ صَرْفيٍّ وصوتيٍّ.

ولم يفتْ سيبويهِ ملاحظةُ العلاقةِ بينَ التبدُّلاتِ الصَّرْفيَّةِ والدَّلالات المعجميَّة، فذكر أنَّ العربَ ينسبون إلى الطَّويل اللحية، فيقولون: اللِّحْيَانِيَّ، ويقولون في النسب إلى (لِحْيَة): لِحْيِيٌّ ولِحَوِيٌّ، وذلك لأنَّ المعنى قد تَحَوَّلَ[4].

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨.

(٣) علم اللغة الاجتماعيّ، ص ٣١٣.

(٤) الكتاب، ج٣، ص ٣٨٠.

ورأى سيبويه أنّ من الظواهرِ الصَّرْفيةِ الصَّوتيةِ النَّحْويةِ «ما تحكمُه لك المشافهةُ»[١] كالإشباعِ والاختلاسِ ووَصْلِ الكلامِ[٢].

فسيبويه في منهجه لم يكنْ معياريًّا صِرْفاً، ولا وصفيًّا صِرْفًا، ولكنْ حصيفاً ذكيًّا أدرك أنّ الوصفَ والمعيارَ لاينفصلانِ، فاللغةُ لها وصفانِ: وصفٌ اجتماعيٌّ يُمَثِّلُهُ الاستعمالُ الحقيقيُّ لها، بكلّ تبدُّلاتِه النَّحْويةِ والصَّرْفيةِ والصَّوتيةِ والمعجميةِ، ووصفٌ رياضيٌّ تمثله المعاييرُ المجرَّدةُ والقواعدُ الثابتةُ التي بين أجزاء الكَلِم بِنْيَةً وتركيباً، وبذلك يستطيعُ الباحثُ اللغويُّ أن ينتقلَ من الوصفِ الأوّل الذي يسمحُ بوجودِ تباينٍ فصيحٍ حميدٍ في المنظومة اللغويّة إلى الوصفِ الثّاني الذي يحتوي التَبَدُّلاتِ في إطارِ المعيارِ الموحَّدِ أو شبهِ الموحَّد[٣].

ومجموعُ الأوصافِ الاجتماعيّة للاستعمالِ اللغويِّ الفصيحِ يُشَكِّلُ حلقاتِ علمِ اللغةِ التّاريخيِّ المُقارن.

ولايعدم الباحثُ إشاراتٍ منهجيةً في كتاب سيبويه تَتّفقُ مع مُختلف المناهج تقريباً، تجعل منه كتاباً رائداً في المنهج الشّكليِّ والوظيفيِّ والوصفيِّ والمعياريِّ والتّحويليِّ، ولكن هذه الإشارات تمّحي الحدودُ بينها لتؤلّفَ المنهجَ اللغويَّ الواحدَ الذي يتّخذُ من التعدُّدِ في التّطْبيقِ، والسّعة في الطّرح دلالةً على التوحُّدِ في الجَوهَرِ والأصلِ.

دلالةُ المثالِ النَّحْويِّ بينَ المجتمعِ والقاعدةِ النَّحْويّة:

المثالُ النحويُّ تركيبٌ مصنوعٌ يضعه النحاة تطبيقاً لقاعدة نحويّة ومثالاً عليها، ففي التمثيل على تكوُّن الجملة الاسميّة من (مبتدأ وخبر) يُمكن أن يقولوا: «العلمُ مفيدٌ» أو «الكرَمُ محمودٌ» أو الحياةُ متقلبةٌ» أو أيّ مثال آخر يدلُّ على انطباق القاعدة النحويّة على التركيبِ المستعمَلِ، واختيارُ المثال اختيارٌ قصدي[٤] غالباً في بُعده غير النَّحْويّ، لأنّه يحملُ

(١) الكتاب، ج٤، ص٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه جزءاً وصفحة.

(٣) ذكر عبد السلام المسدي أنّ التّمييزَ بين اللغةِ بوصفها ظاهرةً لسانيّة مجرّدةً توجدُ ضمنياً في كلّ خطاب بشريّ، ولا توجد البتة هيكلاً حيويًّا ملموساً. والكلام باعتباره الظاهرة المجسّدة للغة قد يكون أهمّ مبدأ أصوليّ يستند إليه تحديدُ حقل الأسلوبيّة، يرتكز أساساً على ثنائية تكامليّة هي من أهمّ مُواضعاتِ التفكير اللسانيّ، وتتمثل في ظاهرتين وجوديتين: ظاهرةِ اللغة، وظاهرةِ العبارة. انظر كتابه: الأسلوبية والأسلوب، ص ٣٨ – ٣٩.

(٤) يرى سعيد حسن بحيري أنّ القصديّة من أكثر العلامات النّصيّة شيوعاً في البناء الاتصاليّ. انظر كتابه: علم لغة النص، ص ١٤٦.

فكرة، كالحديث عن العِلم في جملة «العلمُ مفيدٌ» ومن هنا ينشأ ارتباطٌ وثيقٌ بينَ المثالِ النَّحْويِّ ودلالته غير النحويَّة، لأنَّ دلالةَ المثالِ النحويِّ - في كتاب سيبويه في الأقلِّ - بنتُ عصرها اجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا اقتصاديًّا.

وقد لانبعد عن الحقيقة إذا ذهبنا إلى أنَّ المثال النَّحْويَّ إشارةٌ ورسالة، فهو إشارة، لأنَّه يحملُ دلالةً تاريخيَّةً اجتماعيَّةً على عصر مُعين أحياناً، فلا يوجد في كتب النَّحْو القديمة مثالٌ يَدُلُّ على أسلوب (الحال) بجملة «انطلقتِ السَّيَّارةُ مسرعةً»، لأنَّ السَّيَّارةَ بمفهوم العربة الآلية التي نعرفها لم تكنْ موجودةً قبل عدة قرون، كما تشير الجملة الفعليَّة «أعتَقَ زيدٌ جاريته» إلى ظاهرة الجواري والعبيد، وهي الظَّاهرة التي لم يعُدْ لها وجودٌ فعليٌّ في عصرنا.

وأمَّا أنَّ المثالَ النحويَّ رسالةٌ، فلأنَّه يرتبطُ غالباً بالقيم والمعاملات، أي: الحياة بتعبير أعمّ، مثل الحديث عن الكرَمِ والوفاءِ واللقاءِ والرؤيةِ والمُساعدة وغيرها من مضامينِ الحياة المختلفةِ، فالمثالُ النَّحويُّ في كتاب سيبويه يرسم - إلى حدٍّ ما - بعضَ أبعاد مُجتمع البصرة[1] في القرن الهجريِّ الثاني، ذلك المجتمع الذي تشكل على فمِ البادية، فيه الأعرابيُّ القُحُّ الذي يقولُ فيعربُ، والعربيُّ الحضريُّ الذي يشوب لسانَه أثرُ التحضُّر، والأعجميُّ الذي لايكادُ يبينُ بالعربيَّة.

ولم يكن شيوعُ اسم (عبد الله) و (زيد) في أمثلة سيبويه إلا دلالةً على شيوع هذين الاسمين في مجتمع سيبويه البصريِّ، فليستْ لاسم (عبد الله) دلالة نحويَّة تختلف عن اسم (عبد الرحمن) أو (امرئ القيس)، أو (عبد الملك)، أو غيره، كما ليس لاسم (زيد) دلالة نحويَّة تميزه عن اسم (مَعن)، أو (بكر)، أو (خالد)، أو (مازن)، أو غيره.

والملاحظُ أنَّ سيبويهِ يُكثرُ من اسم (عبد الله) في كتابِهِ، وهو اسم له دلالةٌ دينيَّةٌ لإضافته إلى لفظ الجلالة، لهذا لا يكادُ سيبويهِ يستعملُهُ في موطنِ الذَّمِّ أو التحقير في الجملة، بل يأتي بـه في السِّيـاق المقبـول اجتمـاعيًّا نحـو: «عبـد الله أخوك»[2] و «أعطى

(١) ربط دلالة المثال النحويِّ، بمجتمع البصرة لا ينفي أنَّ بعض الأمثلة أو كثيراً منها ينطبق على سائر حواضر العالم الإسلاميِّ آنذاك، فهناك قدر كبير من التشابه الاجتماعيِّ بين الحواضر الإسلاميَّة، ولكنَّ تحديد البصرة مبنيٌّ على أنَّ سيبويه ابنٌ لمجتمع البصرة، يعيش فيه، ويتعامل مع أهله، فَيَتَخَيَّرُ أمثلته غالبًا وفق العُرف العامِّ عندهم.

(٢) الكتاب، ج١، ص ٢٣.

عبدُ الله زيدًا المالَ إعطاءً جميلاً»[١]، و «عبدُ الله فارهُ العبد»[٢]، وقال سيبويه: «لقيتُ القومَ كُلَّهم حتَّى عبدَ اللهِ لقيتُهُ ... وهلكَ القومُ حتَّى زيداً أهلكتُهُ»[٣]، فقد جاء اسم (عبد الله) في موضع محمود، وهو اللقاء، لكنَّ اسم (زيد) جاء في موضع مذموم، وهو الإهلاك، في احتراس اجتماعيٍّ دينيٍّ من سيبويه من دلالة الإضافة إلى لفظ الجلالة.

ومن الاحتراس الدينيِّ أنَّ سيبويه لم يُجِزْ أن تقولَ: «الحمدُ لزيد» في مقام التعظيم، لأنَّه «ليس كلُّ شيء من الكلام يكون تعظيماً لله عزَّ وجلَّ يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين»[٤]، وهذا ما جعل نهاد الموسى يقول: «وما أشبهَ هذه الملاحظةَ بمُلاحظاتِ اللغويينَ الاجتماعيينَ حولَ تخصُّصِ ألفاظٍ وتراكيبَ معلومةٍ بمواقفَ دينيَّةٍ أو تقليديَّةٍ معلومةٍ»[٥].

ويبدو أنَّ الكنية المضاف إليها مؤنثٌ حقيقيٌّ لم تكن مُستكرهةً في عصر سيبويه، كما في قوله: «ما أبو زينب ذاهباً»[٦] فكلمة «أبو» كوَّنتِ الكنية بالإضافة إلى مؤنَّث حقيقيَ لا مذكَر، ولو كانت مرفوضةً اجتماعيًّا لما استعملها سيبويه.

وتشيعُ في أمثلة سيبويه بعضُ القيمِ الاجتماعيَّةِ الحميدة مثل (الصداقة) التي يعبر عنها سيبويه بالأخوة، كما في قوله: «كنتُ أخاك، وزيداً كنتُ له أخاً»[٧] إشارة إلى تمثُّل مفهوم الأخوة في الإسلام في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٨].

ومن القيم الاجتماعيَّة الكرَمُ والإعطاءُ، فمن أمثلة سيبويه «أُعْطِيَ عبدُ اللهِ المالَ»[٩]، و«أَعْطَى عبدُ اللهِ زيداً المالَ» [١٠]، و «زيداً اشتريتُ له ثوباً»[١١].

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ٤١.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٩٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٩.
(٥) نظريَّة النحو العربيّ، ص ١٠٦.
(٦) الكتاب، ج١، ص ٦٣.
(٧) المصدر نفسه، ج١، ص ٨٩.
(٨) سورة الحجرات، الآية ١٠.
(٩) الكتاب، ج١، ص ٤١.
(١٠) المصدر نفسه جزءاً وصفحة.
(١١) المصدر نفسه، ج١، ص ٨٨.

وتحُثُّ أمثلة سيبويه على مكارم الأخلاق، كقوله: «وأمَّا خالداً فلا تَشْتِمْ أباه»[١]، وقوله: «ليس زيدٌ بجبانٍ ولابخيلاً» [٢]، وقوله: «مررتُ برجلٍ راحمٍ للمساكين بارٍّ بوالديه، فقلت: فلانٌ واللَّهِ»[٣].

وليستْ هذه القيمُ اصطناعاً من سيبويه، بل دلالةً على وجودها في مجتمعه البصريّ، هذا المجتمع البشريّ الطبيعيّ غير المثاليّ، فالناس فيه طبقاتٌ، منهم الأغنياءُ المترفون الذين اتّخذوا من كثرة الغلمان والجواري والخيل دليلاً على مرتبتهم الاجتماعيّةِ المتميزة، كما في قول سيبويه: «عبدُ الله فارهُ العبد فارهُ الدابَّةِ»[٤] وقوله: «جاريتاك قالتا ... وذهبتْ جاريتاك»[٥]، وقوله: «لا غلامَ ظريفاً لك»[٦]، وكثرة الأمثلة عن الجواري دليلٌ على كثرتهن في مجتمع البصرة في القرن الهجريّ الثاني.

ويظهر أنَّ البصرة كانت مركزاً للمجاهدين في القرن الهجريّ الثاني، فهناك أمثلةٌ تدلُّ على شيوع التدرُّب على الرِّمايةِ بين أهلها، كقول سيبويه: «إذا رأيت رجلاً يُسَدِّدُ سهمًا ...»[٧]، ولعلَّ الجهادَ من أسباب الرَّغبة في زيادة النَّسل، حتى إنَّ الرَّجُلَ ليحبُّ الإنجاب، وهو في الستين من عمره، قال سيبويه: «وُلِدَ له ستونَ عاماً، أي: وُلد له الأولاد، ووُلد له الولد ستين عاماً»[٨] على الاتِّساعِ في النِّيابةِ عن الفاعل.

وهناك في أمثلة سيبويه الدالة على المكان اسمان، لهما تفسيرٌ غيرُ نحويٍّ: الأوَّل (اليَمَنُ)، فسيبويه قال: «هذا ثوبٌ نسجُ اليَمَنِ»[٩]، ممَّا يشير إلى علاقة تجاريَّة مع اليمن لكن هناك خصوصيَّة في هذه العلاقة، قد تُفسَّر في الإشارة إلى أنَّ بعضَ قبائلِ البصرةِ أصلُها من اليمن، فلا غرابة أن يَتَخَيَّرَ سيبويه مِثالاً فيه إشارةٌ لليمن مع توقّع توافر نسيج من الشام أو مصر أو غيرهما.

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ١٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٦٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٧٧.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٨.
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٨.
(٧) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٥٧.
(٨) المصدر نفسه، ج١، ص ٢١١.
(٩) الكتاب، ج٢،ص١٢٠.

أمَّا المكانُ الثَّاني فهو (الشام)، إذ قال سيبويه: «ذهبتُ الشَّأْم»[١] ممَّا يدلُّ على مكانة متميزة للشَّام عنده حتى خصَّها بالمثال، بل لعلَّها عند أهل البصرة آنذاك، فقد قال:«أمَّا أن أسيرَ إلى الشام فما أكرهُ، وأمَّا أن أُقيم فإنَّ فيه أجرًا»[٢]، كأنَّه يشير إلى فكرة قداسة الشام وبركتها إيمانًا بفكرة قداسة بيت المقدس وأكنافه في الشام؛ لهذا عدَّ للإقامة فيه أجرًا.

وتشير أمثلة سيبويه إلى الحرص على وجود علاقات اجتماعيَّة قوية بين أفراد المجتمع، كقوله: «إذا كان غدٌ فأتني ... وإن شئت قلت: إذا كان غداً فأتني»[٣]، وقوله: «كلَّمته فاه إلى فيَّ... كأنَّه قال: كلمته مُشافهة»[٤]، وقوله: «رأى عبدُالله زيدًا صاحبنَا»[٥]، وقوله: «نبأت زيدًا عمرًا أبا فلان»[٦]، وقوله: «ليته عندنا يحدثنا»[٧]، فهذه الأمثلة النحويَّة تدلُّ على حرص المجتمع البصريِّ في القرنِ الهجريِّ الثَّاني على المباشرة في تنفيذ الفعل الكلاميِّ، إذ تدلُّ على الإتيانِ، والمشافهةِ، وتعريف الأصدقاء بعضهم ببعض، ونقل أوصاف الناس، والحرصِ على عدم الصَّمْت عند اللقاء،.وهي مَعانٍ مباشرة الحدَث لا تحدث في حيز كبير، وتشيرُ إلى شخصية مباشرة في التعامل تعطي للملاحظات السِّياقيَّة دورًا في التدبُّر والتأمُّل، ومن ثَمَّ الحكم على الموقف، وتدلُّ على المجابهة في التعامل بشجاعة، وعلى الحرص على اللقاء، لجعله قناة للحوار ونقل الأخبار، بل دليلاً على قُوَّةِ التَّرابُطِ الاجتماعيِّ، ووَحْدَةِ المجتمع وتجانسه، فقد ذكر هدسن أنَّ «الذين يشعرون بتقاربهم الروحيِّ يقترب بعضُهُمْ من بعض نسبيًّا عند التعامل، وبذلك تقع علاقات المحبين في جانب، وتقع في جانب آخرَ المواقفُ غيرُ الشخصيَّةِ والرسميَّة»[٨].

وفي تجربةٍ لتبيُّنِ صحَّةِ هذا الاستنتاج على طلابٍ جامعيِّين عربٍ وأمريكيِّين تَبَيَّنَ أنَّ

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٤١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٥.

(٣) المصدر نفسه،ج١، ص٢٢٤.

(٤) المصدر نفسه،ج١، ص٣٩١.

(٥) المصدر نفسه،ج١، ص٣٩.

(٦) المصدر نفسه،ج١، ص٤١.

(٧) المصدر نفسه،ج٣، ص٩٣.

(٨) علم اللغة الاجتماعيّ، ص٢٢٨.

العربَ يواجه بعضهم بعضًا بطريقة أكثر مباشرةً من الأمريكيين ... وأنّهم يقتربون بعضهم من بعض في جلوسهم»[1]: لأنّهم يعبّرون عن أفكارهم بأفعال تدلُّ على ترابطهم وتماسكهم.

فكأنّ سيبويه تَنَبَّهَ على حيويّة الموقف الكلاميّ وحرارته عند العرب، فتركزتِ الأمثلةُ النحويّةُ عنده على الرؤيةِ والحديثِ والضرْبِ، وما كثرةُ الحذف السياقيّ في العربيّة إلا دليلٌ على دورِ السّياق الكلاميّ الاجتماعيّ في إسقاط بعض العناصر النحويّة.

وتصف أمثلة سيبويه شيئًا من زيّ أهل البصرة، فقد ذكر أنّ ممّا يتداوله العربُ «أدخلتُ في رأسي القَلَنْسُوةَ، والجيّد، أدخلت في القَلَنْسُوَةِ رأسي»[2]. في إشارة إلى عادة اجتماعيّة وهي شيوع لبسِ القلنسوة على الرأس، بدليل أنّ الشيوع والوضوح يصبحان مُسوّغين للتخفُّف من بعض قيود النحو، لأنّ الجملة الأولى غيرُ دقيقة، فليستِ القلنسوة هي التي تدخل في الرأس، بل الرأس هو الذي يدخل في القلنسوة، لهذا وصف سيبويه الجملة الثانية، بقوله: «والجَيّدُ، أدخلتُ في القلنسوة رأسي».

ومن الأمثلة الدالّة على المُعاملات قول سيبويه: «بعتُ متاعَك أَسْفَلَه قبل أعلاه،... وسقيتُ إبلك صغارَها أَحْسَنَ مِنْ سَقْيي كبارَها»[3] فكأنّ بيع المتاع عادةً اجتماعيّةً فاشيةً في البصرة على عهد سيبويه، قد تُفسّرُ بذهابِ المجاهدينَ إلى الجهادِ مدّةً غيرَ قصيرةٍ، فيبيع متاعه قبل الخروج إلى الجهاد تحسُّبًا من عدم العودة، فقد يُسْتشهَدُ أو يَستقرُّ في البلاد المفتوحة.

وأمّا سقيُ الإبلِ، فقد يُلتمسُ له تفسيرٌ تاريخيٌّ اجتماعيٌّ في الانتجاع والارتباع[4]، لأنّ البصرة تقع على فم باديةِ الجزيرةِ العربيّةِ الشّماليّ الشرقيّ، فمن المألوفِ أن تنجعَ إليها بعضُ القبائل العربيّة من البادية طلبًا للماء والكلأ، أو الاستقرار أحيانًا، وقد عبّر سيبويه عن الاستقرار بعبارةٍ اجتماعيّةٍ بليغةٍ موجزةٍ، فقال: «بنو فلان يطؤهم الطّريق، يريد أهل الطريق»[5] قال ابن جنيّ: «فيه من السّعة إخبارُك عمّا لا يصحُّ وطؤه بما يَصِحُّ وطؤه،

(١) علم اللغة الاجتماعيّ، ص٢٢٩.

(٢) الكتاب، ج١، ص١٨١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٢.

(٤) انظر: التّكوين التاريخيّ للأمّة العربيّة: ص٤٧-٤٩.

(٥) الكتاب، ج١، ص٢١٣.

ووجه التشبيه إخبارُك عن الطَّريق بما تخبر به عن سالكيه، فشبّهته بهم إذ كانَ المؤدّي له، فكأنّه هم. وأمّا التّوكيدُ فلأنّكَ إذا أخبرت عنه بوطئه إيّاهم كان أبلغَ من وَطْءِ سالكيه لهم. وذلك أنّ الطريقَ مقيمٌ مُلازمٌ، وأفعاله مقيمةٌ معه وثابتةٌ بثباته، وليس كذلك أهل الطَّريق، لأنّهم قد يحضرون فيه، وقد يغيبون عنه. فأفعالم أيضًا حاضرة وقتًا وغائبة آخر، فأين هذا ممّا أفعاله ثابتة مستمرة؟ ولما كان هذا كلامًا الغرضُ فيه المدحُ والثناء اختاروا له أقوى اللفظين؛ لأنّه يفيدُ أقوى المعنيين»[١].

ويبدو أنّ رحلةَ الانتجاعِ والارتباعِ إلى البصرة كانتْ حاضرة في أحاديث مجتمع البصرة آنذاك، ولاسيّما عندما يجتمعون في حرّها الشّديد صيفًا، قال سيبويه: «اجتمع القيظُ» يريد: اجتمع الناسُ في القيظ، فتوسّع وأوجز[٢]. فمن حرارة الجوّ تأتي الجملة مختصرةً تقليلاً في الجهد والوقت، وإشارةً إلى أنّ حرارة القيظ لم تكنْ تمنعُ النّاس من الاجتماع والكلام وتسيير شؤون حياتهم.

وقد يتكلّمون على بعض عاداتهم ككيفية إشعال النّار في الطّريق إلى البصرة أو في البصرة نفسها، قال سيبويه: «صَكَكْتُ الحجرينِ أحدَهما بالآخرِ»[٣].

ومن أجمل أمثلة سيبويه المؤثّرة، ذلك المثال النّحْويُّ الذي يدلُّ على قسوةِ الصحراء أحيانًا،عندما يمرضُ المرء في بيدائها، فلا يجد أنيسًا أو مُعينًا، قال سيبويه: «مرض حتى يمرَّ به الطائرُ فيرحمه، وسرت حتّى يَعْلم اللّهُ أنّي كالٌّ»[٤]، فلم يكنِ الركوب آنذاك متيسرًا للجميع، وكم يكون السير صعبًا عندما لا يعلم مشقته من الوَحدة إلا اللّهُ سبحانه وتعالى.

ويتحدّثُ سيبويه عن أكلةٍ شعبيّةٍ قليلةِ التكلفة مُحببةٍ إلى العرب في عصره، اسمها (الثريد)، فمن أمثلته التي شاعت في كُتب النحو: «كيف أنتَ وقصعةٌ من ثريد؟»[٥] والثريد طعام معروف، يُهشَمُ من الخبز، ويُبلُّ بماء القدر وغيره[٦].

(١) انظر: اللسان، مادة (وطأ).

(٢) الكتاب، ج١، ص٢١٥.

(٣) المصدر نفسه ج١/ص١٥٣ .

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٩.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٩٩.

(٦) انظر: اللسان، مادة (ثرد).

وفي البصرة المربد، وهو سوق من أسواق العرب الأدبيَّة المعروفة، له فضلٌ في تميز البصرة بالدراسات اللغويَّة، ولهذا شاع في الكتاب الحديثُ عن استنشاد الشعر، وسماع سيبويه له[١]. ويبدو أنَّ بوادرَ الحركة النقدية كانتْ في البصرة، فممَّا سمعه سيبويه من العرب في البصرة «ليس خَلَقَ اللَّهُ أَشْعَرَ منه»[٢]، استعمل (ليس) استعمال (ما) النافية ، فهناك مفاضلة بين الشعراء وموازنة، لكنَّ الشعرَ في كتاب سيبويه يُمثِّل القرنَ الهجري الثاني وحدَه، ففيه شعر جاهليٌّ يُعبِّر عمَّا قبل الإسلام، أمَّا المثال الذي صاغه سيبويه أو سمعه متداولاً بين الناس في البصرة، فهو ابنُ عصره، يحيا بين الناس بأبعاده النحويَّة والاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ.

ويظهر أنَّ سيبويه كان واقعيًّا في تخيُّرِ أمثلتِهِ النَّحْويَّةِ وصياغتِهَا،فلم يبنِ لمجتمعه صورة مثاليَّة فاضلة، بل ذكَرَ مثالبَه ومناقبَه، فتحدَّث في أمثلته عن ظاهرة الضرْب، والقتْل، والسَّرقة، وغيرها، قال: «هذا رجلٌ ضربنَا»[٣]، و«أمَّا زيد فاقتلْه»[٤]، و«سرقتُ عبدَالله الثَّوبَ الليلةَ»[٥]، و«أنت أكرمُ عليَّ من أنْ أَضْرِبَكَ، وأنتَ أنكدُ من أن تتركَه، أي: أنت أكرمُ عليَّ من صاحبِ الضَّرْبِ، وأنت أنكدُ من صاحب تركه»[٦].

ومن الظاهر أن أمثلة سيبويه لا ترتبط بالدولة، فلا يشمُّ من أمثلة سيبويه أيَّة إشارة إلى علاقته بالدولة، وسيرةُ حياته تشير إلى أنَّه كان زاهدًا في التقرُّبِ إلى أمراءِ بَني العباس كشيخه الخليل بن أحمد الفراهيديِّ[٧].

وفي أمثلة سيبويه ما يدلُّ على أنه ميَّز بين ضَرْبين من النَّحو: أحدهما: النحو السياقيَّ الذي يفسِّر صيغًا وتراكيبَ، يتداولها الناسُ فيما بينهم في عصرهم عند الاستعمال الحيِّ للغة، تعبيرًا عن التَّواصل بينهم، فيحذفون، ويخفِّفون، ويُقَدِّمُونَ، ويؤخِّرون اعتمادًا على

(١) انظر: سيبويه، ج١،ص٤٩، ٧١، ١٦٩، ١٧١، ٢٠١، ٢٧٨، ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٦.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٨.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٤١.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢١٣.

(٧) انظر سيرة سيبويه في نزهة الألباء، ص٥٤-٥٨. فلا يُعرَفُ له علاقة واضحة ببني العباس إلا عندما ذهب إلى بغداد لمناظرة الكسائيّ.

مُلابسات الموقف الكلاميِّ، وحصر وظيفة اللغة في التَّواصلِ، فيكون الاستعمالُ اللغويُّ وسيلة لا غاية.

وأمَّا الآخر ، فالنحو النصِّيُّ، الذي يموت فيه السِّياقُ غالباً ، وتحيا القاعدةُ، فيأتي الكلامُ على قدِّ القاعدةِ ، وإنْ كان فيه توسّعٌ وحذف وتقديم ، ففي الحدود التي تجيزها القاعدةُ النحويَّة، وهي فيه قاعدة معزولة عن السِّياق مجرَّدة بصورة رياضيَّة، لا يقوم النصُّ إلا باتّخاذها منهجًا ومعيارًا[1]، لأنَّ المتكلم أو المنشئ عندما ينشئ نصَّه يستخدم اللغة استخدامًا فنيًّا مقصودًا منه التواصُلُ عبر النصّ، فلا يتخفَّفُ من قيودِ النَّحْوِ ، بل يتمثلها غاية تحمي فكرة نصِّه .

ونحو النَّصِّ هو الذي غلب على أعمال نحاة العربيَّة ، فأصبح نحوُهم معياريًّا في الغالب، فيه انحرافٌ عن لغةِ الاستعمالِ الحيِّ في بعضِ الجوانبِ، أمَّا سيبويه ، فلم يفته تسجيلُ مَلاحظَ نحويَّةٍ سياقيَّةٍ[2].

من ذلك تحليلُه لقول الناس في عصره: «دعْنا من تمرتان»[3] إذ حمل كلمة (تمرتان) على الحكاية ، فقال: «إجابة على الحكاية لقوله: ما عندَه تمرتان»، فالتمرُ - وما أكثره في البصرة! - مادَّة للحديث قد لا يتنبَّهُ المرء عند حديثه عنه على ضوابط الإعراب لوضوح المعنى وجلاء المقصدِ ، فلم يكنْ من سيبويه إلا أنَّ حمل ذلك على باب الحكاية ، وهو بابٌ نحويٌّ مبنيٌّ على مُراعاة ما يقتضيه سياقُ الكلام .

ومن المَلاحظِ السِّياقيَّة قولُه: «وتقول: إذا كان غدٌ فأتني ... وإنْ شئتَ ، قلت: إذا كان غدًا فأتني، وهي لغة بني تميم، والمعنى: أنَّه لقي رجلاً، فقال له: إذا كان ما نحنُ عليه من السَّلامة، أو كان ما نحنُ عليه من البلاء في غدٍ فأتني، ولكنهم أضمروا استخفافًا ... ولأنَّ المخاطب يعلمُ ما يعني ، فجرى بمنزلة المَثَل، كما تقول: لا عليك، وقد عرف المخاطَب ما

(١) وقد عدَّ كمال محمد بشر أمثلة سيبويه الاجتماعيَّة أمثلة عابرة في سبيل وصوله إلى المعيارية. انظر كتابه: علم اللغة الاجتماعيّ، ص٧٢-٧٣.

(٢) للتوسُّع في دراسة السياق عند سيبويه يمكن الرجوع إلى بحثين متميزين للدكتور نهاد الموسى، أولهما: الوجهة الاجتماعيَّة في منهج سيبويه في كتابه، وثانيهما: الأعراف أو نحو اللسانيّات الاجتماعيَّة في العربيَّة، ضمن أعمال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيّات.

(٣) الكتاب، ج٢، ص٤١٣.

تعني، أنه لا بأسَ عليك»[١]، فجملة: «إذا كان غدٌ فأتني» تحمل أبعادًا سياقيةً، تبيَّنَها سيبويه، فلم يجد فيها خروجًا عن سَنَنِ العربيَّة، واختبر رأيَه بجملة: لا عليك، لأنَّه وعى أنَّ المتكلِّم قد أوصل كلامَهُ إلى المخاطب كاملاً في جملته المختصرة، ولهذا فقد تواصَلَ المتكلِّمُ والمخاطَبُ ، والتواصلُ غايةُ اللغة .

وبما أنَّ نحو السِّياقِ يقومُ على تفسيرِ الاستعمالِ المقبولِ من اللغة لا تخطئتِه، فإنَّ سيبويهِ كانَ يجدُ في قواعد النَّحْوِ تُكَأَةً في تخريج ما يتداوله فصحاءُ عصرِهِ، فقال: «وأمَّا قولهم: راشدًا مَهْدِيًا، فإنَّهم أضمروا: اذهبْ راشدًا مَهديًا، وإن شئتَ رفعت، كما رفعت: مصاحبٌ مُعانٌ، ولكنَّه كَثُرَ النَّصْبُ في كلامهم»[٢]. فقد سجَّل سيبويه هنا ثلاثةَ مَلاحِظَ تزامنيَّة Synchronic تفيدُ في دراسةِ تَطَوُّر هذا النَّمَطِ من التعبير في العربيَّة: الرَّفع، والنَّصب على حذف العامل جوازًا، وكثرة النصب على الرفع فيه.

ومن المَلاحظ السِّياقيَّةِ العباراتُ التي كان سيبويه يحملُها على التَّوسُّع، فكان يُجيز قولَ العرب: «ضُرِبَ زيدٌ ظَهْرُهُ وبَطْنُهُ، والظَّهْرُ والبطنُ ... ودخلتُ البيتَ، وإنَّما معناه: دخلتُ في البيت»[٣].

وذكر سيبويه «صِيدَ عليه يومانِ، وإنَّما المعنى: صِيدَ عليه الوحشُ في يومين، ولكنَّه اتَّسع واختصر»[٤]، وذكر أنَّ من العرب من يقول: «اجتمعتِ اليمامةُ، يعني أهلَ اليمامة فأنَّث الفعل في اللفظ، إذ جعله في اللفظ لليمامة، فتَركَ اللفظَ يكونُ على ما يكون عليه في سَعةِ الكلامِ»[٥].

ومن أمثلة التوسّع قول سيبويه: «أكلتُ أرضَ كذا وكذا، وأكلتُ بلدة كذا وكذا إنَّما أراد: أصابَ من خيرها، وأكلَ من ذلك وشَرِبَ، وهذا الكلام كثير... وهو أكثرُ من أن أُحصيَهُ»[٦]. ومنه «هذه الظهرُ ... إنَّما يريد: صلاة هذا الوقت»[٧].

فسيبويه استخلصَ علاقتين: الأولى: دلاليَّة معجميَّة. والثانية نحويَّة تركيبيَّة، كما يأتي:

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧١.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٨-١٥٩.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢١١ .
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٥٣ .
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢١٤-٢١٥ .
(٧) المصدر نفسه، ج١، ص٢١٥.

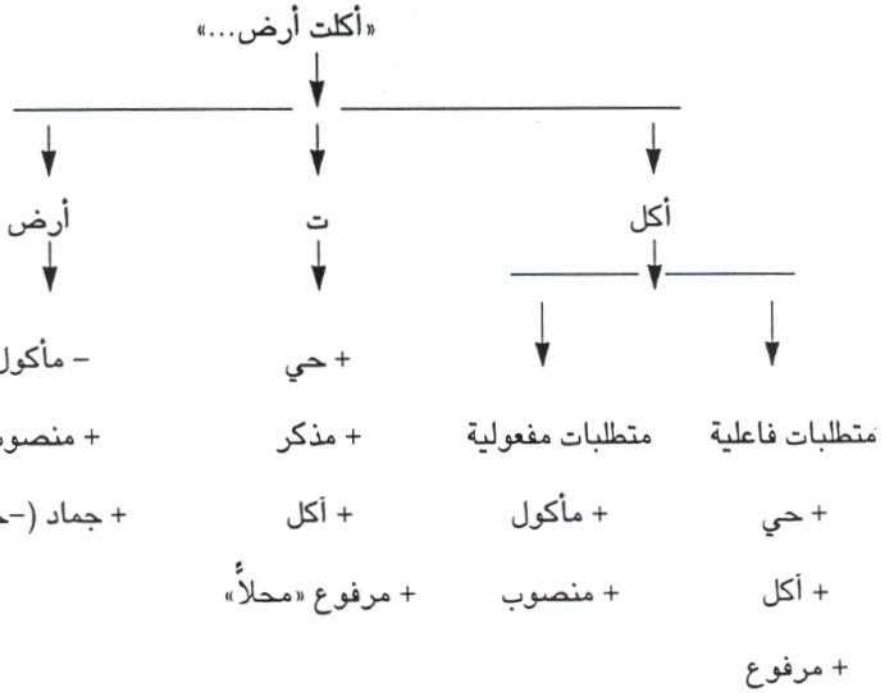

فالفاعل المدلول عليه بالضمير التاء يناسبُ الفعلَ لتحقيقه المُتطلباتِ الفاعليَّةَ للفعل (أكل) لكنَّ المفعول به (أرض) غيرُ مناسب لأحدِ المتطلبات المفعولية للفعل (أكل)، لأنَّه جماد لا يُؤكلُ، لهذا أوَّله سيبويهِ بكلمة (خير)، وهي كلمة عامَّة يمكن أن تدلَّ في السِّياق على المأكول، كجملة «أكلتُ خيرَ أرض كذا» فالطعام هو الخير، وهو تأويلٌ يراعي تحقّق عنصرِ الإفادة في الكلام، ولا سيَّما أنَّ العلاقةَ النَّحْويَّةَ المشارَ إليها بعلامة النصب قد تحقّقت في الكلمة (أرض)، فكأنَّ سيبويهِ يشيرُ إلى أنَّ من ضوابطِ التوسُّعِ تساوي العلاقةِ النحويَّةِ بين المتوسَّعِ فيه والمتوسَّعِ عنه.

ويُمكن تحليل جملة «هذه الظهر» كما يأتي:

أداة الإشارة	المشار إليه المحذوف	متعلق المشار إليه المذكور
هذه	صلاة	الظهر
+ مؤنث	+ مؤنث	+ مذكر (- مؤنث)
+ مفرد	+ مفرد	+ مفرد
+ مرفوع «محلاً»	+ مرفوع	+ مرفوع

فالمشارُ إليه محذوفٌ، ومتعلّقه جَمَعَ بينَ الإفرادِ والرَّفع لكنَّه لم يكنْ مؤنثًا، لهذا قدَّره سيبويه محذوفًا، وأجاز الجملة توسُّعًا، لأنَّ العلاقةَ النحويَّة وهي الرَّفعُ والإفرادُ قد تحقَّقت، فتخفَّف من العلاقةِ الدَّلاليَّة وهي التأنيث اعتمادًا على وضوحه في السِّياق.

ويقدِّمُ سيبويهِ بهاتين العلاقتينِ شيئًا من الملحوظات الأولى في البلاغة العربيَّة، ومجازاتها في علاقاتِ المكان والزَّمان في ظاهرة التَّوسُّع، وما غفر هذا التوسُّعَ إلا مراعاة السِّياق الواضح الدلالة الذي يرتبطُ بشيوع المعنى، كشيوع الصَّيدِ، واجتماع أفراد القبيلة، وجعل الصلاة عَلَمًا على الوقت، إضافةً إلى مراعاة قانون تقليل الجهد، لأنَّ الإشارة تُغني عن العبارة أحيانًا.

وكما تبيَّن سيبويه جَبْرَ العلاقة النحْويَّةِ البعد الدلالي أو العلاقة الدلاليَّة، تبيَّنَ الوجهَ المضادَّ المعاكس لهذه العلاقة إذ تجبُرُ العلاقة الدلاليَّة - على نطاق ضيِّق - ما يعتري العلاقة النحويَّة من اضطرابٍ أحيانًا، قال سيبويه: «وقد قال قوم من العرب تُرْضى عربيَّتُهم: هذا الضَّاربُ الرجل، شبَّهوه بالحسنِ الوجهِ، وإنْ كان ليس مثلَه في المعنى، ولا في أحواله، إلا أنَّه اسمٌ، وقد يُجَرُّ ويُنْصَبُ أيضًا كما يُنصبُ، وسيُبيَّنُ ذلك في بابه إنْ شاء اللَّه»[1]. والحديث عن تشبيه اسم الفاعل بالصِّفة المشبهة بالعمل.

فالأصل عدمُ الإضافة للمعرَّف بأل[2]، وقد شذَّتْ مسألة «الحسنِ الوجه» لكنَّ وضوح

(١) الكتاب، ج١، ص١٨٢.

(٢) وهذا من قبيل أصل القاعدةِ الذي لا يسمح إلا بالخروج من قاعدة أصل إلى قاعدة فرع، أمَّا الخروجُ إلى الشَّاذِّ فيرفضه أصلُ القاعدة. انظر: نظريَّة الأصل والفرع في النحو العربيّ، ص٩١-٩٧.

المعنى سوّغ لسيبويه إجازة الإعراب، لأنه - أي: الرَّجل - اسمٌ، والاسم يقبل الجرَّ والنَّصب، وهنا تفقدُ العلامةُ الإعرابيَّةُ قيمتَها الوظيفيَّةَ، وقد تكون هذه الإلماحة من سيبويه هي التي سبقت إلى عقل تلميذه محمَّدِ بن المستنير المعروفِ بقُطْرب، فقال رأيَه المشهور: إنَّ حركاتِ الإعراب للوصْلِ في دَرْج الكلام، وليستْ ذاتَ قيمةٍ دلاليَّةٍ مُطَّردة[1]، لأنَّ هذا النموذجَ من نحو السِّياق يشيرُ إلى هذا المفهوم.

وينبغي التحوُّطِ بتأكيد أنَّ نحو السِّياق الذي يفسِّر الاستعمال[2] لا يجوز أنْ يُتَّخذَ مقياسًا يُتَّبع في تأليف الكلام، إلا إذا اتَّفق مع معايير نحو النَّصّ[3]، فلا يجوز القياسُ على جملة «أدخلتُ في رأسي القَلَنْسُوَة، أو هذا الضَّاربُ الرَّجلِ»، لأنَّ قَبولَ هاتين الجملتين اعتمد استضاءة جوِّهما غير النحويِّ بكلِّ أبعاده.

وليس هناك حدٌّ فاصلٌ دقيقٌ بين الأبعاد النحويَّة وغير النحويَّة للجملة؛ لهذا كان الخلافُ بين البصريِّين والكوفيِّين في وجهٍ من وجوهه خلافًا في البُعد غير النحويِّ للجملةالذي يسمَحُ باتِّخاذها أصلاً ومقياسًا، فالبصريّون - على العموم- كانوا يميلون إلى عزل الجملة عن أبعادها غير النحويَّة غالبًا، فأقاموا المعاييرَ الثَّابتةَ المجرَّدةَ، وقَلَّلُوا الآراء، وتشدَّدوا في الرُّخَصِ النَّحْويَّة، لكنَّ الكوفيِّين - على العموم -تسمَّحوا في الحدود غير النحويَّة أحيانًا[4]، فنظروا إلى المعنى والسِّياق، فجعلوهما مناط التَّرخُّصِ في النَّحْو، فنحوُهم أقربُ إلى مفهوم نحو السِّياق حتى إنَّ بعضَ مصادره كتبٌ غيرُ نحويَّةٍ في الأصل كمعاني القرآن للفرَّاء، وشرح القصائد السَّبع الطِّوال الجاهليَّات لأبي بكر بن الأنباريّ.

وهذا الضَّرْبُ من النَّحْو يحتاجُ إلى تحديثٍ في مُعطياته ونتائجه وضوابطه بين مدَّة وأخرى؛ لأنَّ السِّياقَ يخضعُ للتغيرات الثقافيَّةِ والاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ، لأنَّه دراسةٌ تزامنيَّةٌ وصفيَّةٌ، أي: إنَّه - بالضَّرورةِ - نحوٌ اجتهاديٌّ متجدِّدٌ، ولعلَّ سببَ انزواء

(١) انظر رأيه عند الزجاجيّ، الإيضاح في علل النحو، ص٧٠-٧١ .

(٢) للاستعمال اللغويّ مستوياتٌ متعدِّدةٌ، لكلِّ مستوى منها خصائصهُ المميِّزة له صوتًا وصرفًا ونحوًا.

انظر علم اللغة الاجتماعيّ: مفهومه وقضاياه، ص٢٥٣-٢٧٤.

(٣) وهذا ما وصفه صبري إبراهيم السيد بأنه من «فصحى النحو» . انظر كتابه السَّابق نفسه، ص٢٥٤.

(٤) انظر في خصائص نحو كلٍّ من البصرة والكوفة: خديجة الحديثي، اللغة والنحو، ضمن كتاب (حضارة العراق)، ج٧، ص٢٤٠-٢٤٦، ٢٥٠-٢٥٥.

نحو الكوفيّين أنَّ المتأخرينَ بعد القرن الرَّابع الهجريِّ، لم ينتبهوا إلى هذه الصِّفةِ الطبيعيَّةِ في النَّحْوِ الكوفيِّ.

على حين كان نحوُ جمهور البصريّين نحوَ نصٍّ ثابت معزول غالبًا عن السِّياق[1]، فلا يستلزم بطبيعته إعادة النظر بين مدَّة وأخرى، أمَّا كتابُ سيبويه، فيجمعُ خصائصَ الضَّرْبين: السِّياق والنَّص في نسيجٍ لُغَويٍّ لا نظيرَ له في تاريخ العربيَّة.

فسيبويه كان مُدركًا لأهمية السِّياق الاجتماعيِّ في تحليل الظاهرة اللغويَّة نحويًّا، وقاصدًا - فيما يبدو - الدلالة الاجتماعيَّة العامَّة لأمثلته؛ لهذا استطاع بتقليب النظر في أمثلته استثمارَ البُعد الدلاليِّ الاجتماعيِّ في التقعيدِ النحويِّ، وفرْزَ اللغة إلى مُستوياتٍ من حيثُ القياسُ عليها في إطارين: زمانيٍّ واقعيٍّ، وتجريديٍّ غير زمانيٍّ.

ولعلَّنا نفيد من تجربة سيبويه المميزة في دراسةِ المثال النحويِّ بأبعادِه كلِّها.

فالأولى أن تُبنى كتبُ النَّحْوِ الحديثة على نصوص، وأمثلة حديثة فصيحةٍ من واقع الاستعمال المعاصر الفصيح للغةِ العربيَّةِ حتى تكونَ أقربَ دلاليًّا للمتعلِّم، وأجدى منفعةً له من أمثلة قديمة تحتاجُ إلى شرح طويل لأبعادِها غير النحويَّة التي لا يدركُها المتعلِّمُ من غير شرح، مع رفْدِ الأمثلةِ بالشَّواهد الواضحة الدَّلالةِ من القرآن الكريم، والشعر القديم والأمثال وغيرها، ثم تُستثمَرُ سائرُ الأمثلة والشَّواهد القديمةِ في مُتابعةٍ تمكِّن المتعلِّم من القاعدة النحويَّة في التطبيقات وما شابهها، حتى يبقى المتعلِّمُ على اتصالٍ وتواصُلٍ مع تراثِه.

والأَوْلَى تنويعُ منهجِ دراسةِ النَّحو، فليس الخيرُ في دراسة النَّحْو بمنهج معياريٍّ فقط، أو اجتماعيٍّ، أو وصفيٍّ، أو تاريخيٍّ، أو مقارن، أو بصريٍّ، أو كوفيٍّ، بل الخيرُ كلُّ الخير في استضاءةِ الظاهرةِ النحويَّة على وَفْقِ المنهجِ الذي يناسبُها، وتقديمها للمتعلِّمينَ على وفْقه، لتكونَ العلاقةُ بينَ المناهجِ المختلفةِ علاقةَ تكاملٍ لا تصادُم، ولعلَّ هذا التكاملَ في المناهجِ أحدُ أسرارِ خلودِ كتاب سيبويه.

فهذه دعوة إلى أمثلةٍ نحويَّةٍ، تحملُ في دلالتها المكانَ والزمانَ، وأبعادَهما المعاصرة اجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وثقافيًّا، وتاريخيًّا، حتى تكونَ كالوثائق التاريخيَّة تنبئُ غيرَنا عنَّا، وتدخُل إلى عقولِ الناشئةِ من عصرهم لا من عصورٍ مَضَتْ، فللكلمة ذاكرةٌ.

(١) لا ينفي هذا أنَّ السياق أو دلالة الحال أصلٌ مُدركٌ في الدرس النحويِّ عند النحاة كافَّة. انظر: نظريَّة التعليل في النحو العربيِّ بين القدماء والمحدثين، ص٩٧-٩٩.

ثبت المصادر والمراجع

١- اتجاهات البحث اللّساني: ميلكا إفيتش، ترجمة سعد عبدالعزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ١٩٩٦م .

٢- الأسلوبية والأسلوب: عبدالسّلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط٣، تونس، ١٩٨٢م.

٣- الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعيّة في العربيّة: نهاد الموسى، ضمن أعمال الملتقى الدّولي الثّالث في اللّسانيات، الجامعة التّونسيّة، تونس، ١٩٨٥م.

٤- الإيضاح في علل النّحو: الزّجّاجيّ، عبدالرحمن بن إسحاق (ت٣٣٩هـ / ٩٥٠م) تحقيق: مازن المبارك، دار النفائس، ط٣ ،بيروت، ١٩٧٩م .

٥- التفكير اللغوي بين القديم والحديث: كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، مصر، د.ت.

٦- التّكوين التّاريخيّ للأمة العربية، دراسة في الهُويّة والوعي: عبدالعزيز الدّوري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٦م.

٧- سيبويه إمام النُّحاة: عليّ النّجدي ناصف، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٩م.

٨- سيكولوجيّة اللّغة والمرض العقليّ: جمعة سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، العدد المرقم ١٤٥، الكويت، ١٩٩٠م .

٩- شرح المقدّمة المحسبة: ابن بابشاذ، طاهر بن أحمد، (ت٤٦٩هـ / ١٠٧٦م)، تحقيق: خالد عبدالكريم ، الكويت ، ١٩٧٦م

١٠- علم الدّلالة: بيار غيرو، ترجمة: أنطوان أبوزيد، منشورات عويدات، ط١، بيروت، ١٩٨٦م .

١١- علم اللّغة الاجتماعيّ، مَفْهومه وقضاياه، صبري إبراهيم السّيّد، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، ١٩٩٥م.

١٢- علم اللّغة الاجتماعي: كمال محمد بشر، دار غريب، مصر، ١٩٩٥م .

١٣-علم اللّغة الاجتماعي: هدسن، ترجمة: محمود عبدالغني عَيّاد، دار الشؤون الثّقافيّة العامّة، ط١ ،بغداد، ١٩٨٧م .

١٤- علم اللّغة العامّ: فردينان دي سوسير، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، نشر بيت الحكمة بالموصل، العراق، ١٩٨٨م .

١٥- علم لغة النَّصّ، المفاهيم والاتجاهات: سعيد حسن بحيري، الشَّركة المصريَّة العالميَّة للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م

١٦- الكتاب: سيبويه، عمرو بن عثمان (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)، تحقيق: عبدالسَّلام هارون، دار الجيل، ط١، بيروت،١٩٩١م .

١٧- الكتاب بين المعياريَّة والوصفيَّة: أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م .

١٨- لسان العرب: ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ/١٣١١م) .

١٩- اللّغة والنَّحو: خديجة الحديثي، ضمن كتاب (حضارة العراق)، دار الحريَّة، بغداد، ١٩٨٥م، ج٧.

٢٠- المنهج الوصفيّ في كتاب سيبويه: نوزاد حسن أحمد، جامعة قار يونس، ط١، بنغازي،١٩٩٦م.

٢١- موجز تاريخ علم اللّغة: روبنز، ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، العدد المرقم ٢٢٧، الكويت، ١٩٩٧م .

٢٢- نُزْهة الألبّاء في طبقات الأدباء: الأنباري، عبدالرحمن بن محمد، (ت٥٧٧هـ/١١٨١م)، تحقيق: إبراهيم السَّامرائي، مكتبة المنار، ط٣، الأردن، ١٩٨٥م.

٢٣- نظرية الأصل والفرع في النَّحوِ العربي: حسن خميس الملخ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيَّة، ١٩٩٥م .

٢٤- نظرية التعليل في النَّحو العربيّ بين القدماء والمحدثين، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنيَّة، ١٩٩٨م.

٢٥- نظرية النَّحو العربيّ في ضوء مناهج النظر اللغويّ الحديث: نهاد الموسى، دار البشير ومكتبة وسام، ط٢، الأردن، ١٩٨٧م .

٢٦- الوجهة الاجتماعيَّة في منهج سيبويه في كتابه: نهاد الموسى، مجلة حضارة الإسلام، دمشق، ١٩٧٤م، نسخة مصوَّرة عن البحث .

٢٧- الوحدة الدَّاخليَّة في كتاب سيبويه: رمزي منير بعلبكي، ضِمْن كتاب: بحوث عربيَّة مهداة إلى الدُّكتور محمود السَّمرة، تحرير: حسين عطوان، ومحمَّد إبراهيم حوّر، دار المناهج، عَمَّان، ١٩٩٦م.